

إريك بندر  
يوآف برومر

### في الطريق إلى سنة 2048\*

إذا تحققت، لا سمح الله، نبوءة الصحافي الأميركي بنجامين شفارتس، أحد كبار محرري مجلة "أتلانتيك" (The Atlantic) المرموقة والمهمة، والتي تصدر في بوسطن، لن يكون على سكان غوش قطيف وشمال السامرة وحدهم البدء بحزم الحقائق، بل في إمكاننا جميعاً أن نبدأ بذلك، كما في النكتة المريرة عن اللافتة في مطار بن - غوريون في أيام الركود الصعبة في الستينيات التي تقول: "آخر المغادرين يطفئ الضوء." "هل ستعيش إسرائيل حتى 100 عام؟ - (Will Israel Live to 100?) " هذا هو العنوان الذي اختاره شفارتس لمقاله المثير للخلاف في عدد أيار/مايو من مجلة "أتلانتيك"، الذي يتوقع فيه نهاية المشروع الصهيوني. لقد كان آخر من طرح مثل هذا السؤال معارض النظام السوفياتي أندريه أمريك، الذي وضع في سنة 1969 كتابه: "هل سيبقى الاتحاد السوفياتي قائماً حتى سنة 1984؟"، وأظهر التاريخ أنه أخطأ ببضعة أعوام فقط. واستناداً إلى محادثات أجراها مع جهات متعددة في إسرائيل، وإلى تنبؤات ديموغرافيين إسرائيليين أساساً، يجزم شفارتس بشكل حاسم أن الرحم الفلسطيني هو فعلاً قنبلة موقوتة، ستؤدي في نهاية المطاف إلى ترجيح الكفة.

يقول شفارتس هذا الأسبوع في مقابلة معه: "في الفترة الأخيرة، من الصعب ألا نشعر برياح تهاول حذر تهب من عناوين الصحف." لكنه على اقتناع، من وراء الابتسامات، بأن المشكلات الحقيقية ليست في طريقها إلى الحل. إنه يبلغ من العمر 42 عاماً، ومن مواليد نيويورك، ويسكن في بوسطن. وهو ذو تجربة غنية في الصحافة والعلاقات الدولية، بصفته، بين نشاطات أخرى، باحثاً في معهد "راند" ومحرر المجلة الأكاديمية الشهرية. World Policy.

إن شفارتس على اقتناع بأن "كل شيء مموء في التاريخ، ولا أعلم ما إذا كانت الأجيال المقبلة من الفلسطينيين ستكون مستعدة لقبول الاتفاقات التي سيوقعها قادتهم اليوم." وبحسب رأيه، فإن اتفاقاً للسلام مع إسرائيل سيبقى قائماً في المستقبل من جانب الفلسطينيين ما داموا غير قادرين على تغيير الواقع.

"بما أنني ابن لأب يهودي ولأم كندية من أصل كوري، ثمة من يقولون لي إنني يهودي، وثمة من يقولون إنني لست يهودياً"، يقول شفارتس، "لكن من ناحيتي أنا أشعر بالتوافق الكامل مع إسرائيل ومع الشعب اليهودي، وبالتالي فإن مصير إسرائيل مهم للغاية لي." وقد زار إسرائيل عدة مرات، لأسباب منها كتابة زاوية في "أتلانتيك" عن ظاهرة المخربين الانتحاريين.

إنه يعترف بأن كتب المؤرخ البروفسور بني موريس أثرت فيه كثيراً. ويقول: "في نهاية المطاف، أنا لست متشائماً، أنا واقعي. فقط إذا تمت الآن مواجهة المسائل الحقيقية القائمة في جوهر الصراع - مثل الديموغرافيا وحق العودة والاعتراف الواعي بالحدود الإقليمية لإسرائيل - يكون مستقبل الدولة مضموناً."

## الجدار سيتحطم

"لم ينجح المشروع الصهيوني قط في التغلب على العقبة الديموغرافية التي أقلقته منذ تأسيسه"، يجزم شفارتس في مقاله، "إن الحاجات الوجودية للسكان الفلسطينيين، الذين تفوق نسبة تكاثرهم مثلتها في إسرائيل بعدة مرات، سترغم كل دولة فلسطينية مستقبلية على أن تحاول التوسع، الأمر الذي سيكون على حساب إسرائيل، وربما على حساب الأردن أيضاً".

وبحسب قول شفارتس، فإن الواقع الديموغرافي صفع آباء الصهيونية الذين كانوا يؤمنون بفكرة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". وخلال عام واحد فقط سيصبح اليهود أقلية بين البحر ونهر الأردن، وستصل نسبة اليهود إلى مجموع السكان خلال 15 عاماً إلى 42٪ فقط.

إن العملية الديموغرافية ستؤدي بالفلسطينيين إلى التخلي عن فكرة الدولة المستقلة وتبني فكرة دولة واحدة ثنائية القومية، بحسب مبدأ "شخص واحد، صوت واحد"، وهو ما سيضمن لهم أكثرية في الدولة العربية - اليهودية.

إن رئيس الحكومة، أريئيل شارون، يدرك الخطر الديموغرافي جيداً، بحسب ما كتب شفارتس. وخطة فك الارتباط من جانب واحد، والتخندق وراء جدار الفصل، هما اثنتان من نتائج هذا الإدراك، لكن الديموغرافيا الفلسطينية ستحطم الجدار.

يعرف شارون وأبو مازن "وكل إنسان عقلاني" في المنطقة ما يجب عمله: وقف الإرهاب في مقابل انسحاب إسرائيلي كامل من معظم المناطق، وتفكيك أغلبية المستعمرات، وإقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل على معظم أراضي الضفة والقطاع. لكن الشعب في إسرائيل لن يقبل بالانسحاب الشامل، ولن يكون في إمكان الفلسطينيين التنازل عن حق العودة، بحسب قول شفارتس. وعليه، فإن هذا الطريق المسدود، وإلى جانبه القنبلة الديموغرافية، سيرجحان الكفة ضد أي حل.

كما أن الدولة الفلسطينية لن تصمد في المناطق بسبب التكاثر الطبيعي المفرط للفلسطينيين، الذين سيبحثون بكل الطرق عن سبيل إلى سوق العمل في الاقتصاد الإسرائيلي القوي. وبحسب نبوءة شفارتس السوداوية، لن يكون في قدرة إسرائيل صدّهم، إلا إذا حاولت فعلاً الدفاع عن نفسها بوسائل شبيهة بتلك التي اتخذتها جنوب إفريقيا العنصرية في حينه. لكن إسرائيل ستخسر عند ذاك دعم الولايات المتحدة والغرب، ولن تتمكن من البقاء. وهذه النبوءة الرؤيوية يدعمها بنبرة اليأس متزايد التعاضم، التي يجدها في الآونة الأخيرة لدى "وطنيين إسرائيليين" يزعم أنهم يكررون القول له: "لماذا لم نأخذ أوغندا؟"

ما هو الحل؟ يعلمنا التاريخ، كما يدعي شفارتس، أن مشكلات كثيرة ظلت من دون حل، وتشير الدلائل كلها إلى أن الصراع الصهيوني - الفلسطيني أيضاً غير قابل للحل. ولا يمكن التوصل إلا إلى استنتاج واحد: إن التطلعات القومية لليهود وللفلسطينيين، في قطعة أرض صغيرة واحدة، لا يمكن أن تتحقق ولن يكون في إمكان إسرائيل البقاء حتى العام المئة لإقامتها.

## إعادة التقسيم

من لم يفاجأ بالمقال هو أفيغدور ليبرمان، رئيس حركة إسرائيل بيتنا والاتحاد القومي. يقول ليبرمان: "حتى قبل ثلاثة أعوام قمت وحذرت من أن دولة إسرائيل تسير نحو الخراب، وأن ليس من المؤكد أبداً أنها ستكون قائمة بعد 20 عاماً. قالوا حينها عني إنني مجنون ومهوس، لكن يبدو أنه لا يزال هناك عدد من الأشخاص مثلي يفكرون في المستقبل".

لكن ليبرمان يزعم أن لديه حلاً: رسم خطوط جديدة. دولة يهودية متجانسة تشتمل طبعاً على الكتل الاستيطانية في المناطق [المحتلة الفلسطينية]، إلى جانب كيان فلسطيني متجانس يستوعب في داخله أيضاً معظم عرب إسرائيل. وفي تخوم إسرائيل سيسمح بالبقاء فقط لعرب يقبلون التعريف القائل إن إسرائيل دولة قومية يهودية وصهيونية، ويكونون مستعدين للقيام بجميع الواجبات، بما فيها الخدمة العسكرية أو المدنية. "الآخرون جميعاً غير مرغوب فيهم هنا، وسيكون عليهم أن ينتقلوا إلى الجانب العربي".

ويحذر ليبرمان من أن خطة فك الارتباط تتيح للعرب أرضاً نقية من اليهود، لكنها تجعل من إسرائيل دولة ثنائية القومية ذات أقلية عربية تبلغ نسبتها 20%، وهي أخذة في التعاضم. "إذا كان يراد إقامة دولة فلسطينية قومية - متجانسة نقية من اليهود، يكون من حقنا إقامة دولة يهودية متجانسة ونقية من العرب".

إن ليبرمان، خلافاً لشفارتس، لا يقلقه نجاح كيان فلسطيني في البقاء في أجزاء من الضفة والقطاع. "لقد رأينا كيف أمكن تطوير اقتصاد مزدهر يعيل الملايين في هونغ كونغ وسنغافورة. وإذا أراد الفلسطينيون أن يصبحوا طفيليين، فلن يكون ذلك على ظهرنا، وإنما على ظهر الدول العربية الثرية".

في الجانب الثاني من الخريطة السياسية، يجزم رئيس حركة ياخذ، يوسي بيلين، أن سفارتس على خطأ، وخطأ كبير. يقول بيلين: "صحيح أن استمرار السيطرة الإسرائيلية على المناطق سيدخلنا في مشكلة ديموغرافية عويصة. لكن خلافاً للكبير معه يتمثل في [اعتقاده] أنه لا يوجد إمكان اقتصادي لقيام دولة فلسطينية مستقلة، وأن مثل هذه الدولة سينفجر في اتجاه إسرائيل. هذه أقوال لا علاقة لها بالواقع. ثمة إمكان قطعاً لوجود عدد كبير من السكان على رقعة أرض صغيرة إذا توفر العمل لهم. سبق أن تحدثنا عن سنغافورة؟ لدى الدول الصغيرة أيضاً قدرة على البقاء".

ويقول بيلين: "سفارتس في مقاله يؤكد موقفاً ما بعد صهيوني. فهو لا يقترح أي حل، بل يقول إن ليس ثمة حل للوضع. أنا أفكر بطريقة أخرى، وفي رأيي أن شارون أيضاً يدرك اليوم الوضع. وخطة فك الارتباط برهان على أن شارون يعرف أن لا مجال للسيطرة على الفلسطينيين في المدى البعيد".

ويقول "خبير الديموغرافيا الأكثر صدقية" فيما يتعلق بالشعب اليهودي، وكبير الديموغرافيين في إسرائيل، البروفسور سيرجيو ديلا برغولا، إن لا جديد في مقال شفارتس، "باستثناء المقاربة الجبرية". وبحسب أبحاثه، فإن صورة الوضع واضحة: في غضون بضعة أعوام، سيتحول اليهود إلى أقلية في المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن: "لدينا اليوم بالكاد أكثرية 51% من اليهود. وجميع الباقيين فلسطينيون، و3% من المهاجرين غير اليهود من الاتحاد السوفياتي السابق. الفجوة بيننا وبين الفلسطينيين آخذة في التلاشي. وسنصل بحلول سنة 2010 إلى مساواة مطلقة، وسنفقد الأكثرية فور ذلك".

ويقول إن التاريخ يعلمنا أن دولاً تختفي أحياناً ببساطة. "من يتذكر اليوم أن دولة البابا قامت حتى سنة 1861 على ثلث مساحة إيطاليا؟ لقد قررت الأوضاع الداخلية والخارجية أن لا حق لها في الوجود. وهذا ما جرى أيضاً للاتحاد السوفياتي الذي كان، خلافاً لنا، دولة عظمى عالمية. وعلينا بالتالي أن ننظر إلى الأمم، وأن نراقب المسارات التي تحدث".

"ليس من المسؤولية أن نتحدث عن التصفية المحتملة لدولة إسرائيل، وإنما يجب أن نفعل كل شيء لضمان بقاء الدولة، كي لا نصل إلى مثل هذا الوضع، وكي لا نقرب حتى من حافة الأزمة." وبحسب ما يقول ديدلاً برغولا ليس هناك حل آخر سوى الانفصال عن المناطق [المحتلة الفلسطينية]، بما في ذلك الضواحي العربية في القدس الشرقية، وتبادل للأراضي - نقل منطقة المثلث إلى أيدي الفلسطينيين في مقابل الكتل الاستيطانية الكبيرة؛ "بذلك نغير صورة الوضع الديموغرافي بصورة ملموسة. نتنازل عن نحو ثلث عرب إسرائيل فنستطيع أن نضمن أكثرية يهودية حتى سنة 2050 على الأقل".

ويؤكد برغولا أن ليس في قدرة إسرائيل الاستمرار في السيطرة على المناطق فترة طويلة. "إن حرب المستوطنين هي في حقيقتها حرب ضد مستقبل إسرائيل. وهي حرب خاسرة سلفاً. إنها تعمل ضد التاريخ، وضد المنطق والوجود اليهودي. أهالي غوش قطيف والمستوطنون على خطأ بئس. وهم [بسلكهم] يدخلون بأنفسهم هدفاً في مرماهم ومرمانا جميعاً".

الأشد من ذلك هو كلام عالم الديموغرافيا البروفسور أمنون سوفير، الذي يحذر منذ أعوام من الخطر الديموغرافي. يقول سوفير: "إن مقال بنجامين شفارتس يستند أساساً إلى أبحاثي. وشفارتس على حق في قوله إننا ناهبون نحو الانتحار. لكنني أعتقد، خلافاً له، أن ثمة حلاً: الانفصال عن المناطق، وتبادل سكان، وإقامة جدار. الجدار هو المفتاح لبقاء إسرائيل، ومن دونه سنقدم على انتحار جماعي. إذا بنينا الجدار، نجونا. إنه الوسيلة الوحيدة للانتصار على الرحم الفلسطيني، وإذا سقط سنواجه تدفقاً هائلاً من الفلسطينيين إلى داخل إسرائيل، على غرار دخول المكسيكيين إلى الولايات المتحدة. إذا سقط السور، سقطت إسرائيل." لكن، في رأيه، سيدفع الجدار الفلسطينيين إلى أن يبحثوا لأنفسهم عن فرص عمل في الأردن والسعودية والعراق ودول الخليج.

## من دون الجدار نتحرر

يقول سوفير أيضاً إن ليس ثمة أي منطق في الاحتفاظ بالقدس الشرقية. ويضيف: "ضواحي العيزرية وشعفاط والسواحة ليست أماكن مقدسة. يوجد هناك ربع مليون عربي. هيّا نتخلص منها. قلت هذا لشارون، ولم يسقط عن الكرسي. نحن سنضم يوماً ما [مستعمرات] أريئيل ومعاليه أدوميم وإكنااه وألفي منشييه. هيّا نخرج من المسيحانية ومن الجنون. لقد آن أوان الحسم. في اللحظة التي يدرك الفلسطينيون أن ليس في إمكانهم الانتصار علينا بالديموغرافيا، سيبدأون التحادث معنا. لن يكون أمامهم خيار آخر".

أقوال شفارتس والبروفسور سوفير يسمعها يورام إيتنغر ويصاب بالقشعريرة. إيتنغر، القنصل السابق في السفارة [الإسرائيلية] في واشنطن، كان يترأس فريق خبراء إسرائيليياً - أميركياً درس "التهديد الديموغرافي" وتوصل إلى استنتاجات بعيدة المدى ودراماتيكية، فحواها أن 2.4 مليون فلسطيني فقط يسكنون مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة، وليس 3.8 ملايين كما كان يُعتقد حتى الآن استناداً إلى أبحاث سوفير وديدلاً برغولا. وقد ضم الفريق، فيمن ضم، خبراء مثل البروفسور عزرا زوهر، د. دافيد بسخ، العميد (في الاحتياط) دافيد شاحف، المؤرخة البروفسور روبرتا سايد وآخرين.

يقول إيتنغر شارحاً: "إن المعطيات التي استند إليها شفارتس، أي أبحاث أنبياء الغضب الديموغرافيين، مغلوطة فيها ولا أساس لها من الصحة، لأنها تقوم على أرقام مشوهة ومضخمة ومغرصة، وتوقعات مبالغ فيها نشرها مكتب الإحصاء المركزي الفلسطيني".

"تبيّن لنا النتائج أن لا أساس للزعم بأن اليهود على وشك التحول إلى أقلية بين البحر ونهر الأردن. منذ سنة 1967، بقي هناك أكثرية يهودية بنسبة 60٪، ومنذ سنة 1990، ازداد إسكان اليهود بنسبة 2.5٪ سنوياً، كما يجزم إيتنغر. وبحسب قوله، فإن الفلسطينيين لا يعاون أيضاً بشطب الموتى من سجلات السكان، لأسباب بينها ضمان استمرار تلقّي المخصصات من منظمات مثل الأونروا. وفي المقابل، يرفض ديلاً برغولا والبروفسور سوفير كلياً مزاعم إيتنغر، ويشكك في نتائج البحث التي قدمها.

يرفض إيتنغر جميع السيناريوهات المرعبة. "عندما أعلن بن - غوريون إقامة الدولة، كانت نسبة اليهود بين البحر ونهر الأردن 48٪، وهي اليوم 60٪ تقريباً، في حين أن الديموغرافيا العربية في حال تراجع. إن لدى إسرائيل قوة عسكرية هائلة، إلى جانب تكنولوجيا عالية هي الثانية في العالم من حيث حجمها، وطبّ متطور. إذاً، أليس في إمكاننا اليوم أن نعمل ما عمله بن - غوريون سنة 1948؟"

على هذا النقاش المحتدم وعلى تنبؤات شفارتس السوداوية، يطل من رمال نيتسانا آرييه (لوبا) إلياف، المؤمن المخضرم بالتعايش والسلام. "لأسفي، هذه محاولة غير صحيحة لإقامة بناء كارثي من خلال المنظار الأكثر سوداء. هذه رؤية مناهضة للتاريخ. هل فكر أحد يوماً في أن الصراع بين ألمانيا وفرنسا بشأن الألزاس واللورين، الذي تسبب بمقتل ملايين الشبان في ثلاث حروب دموية، سيجد حلاً له في يوم من الأيام؟ لا أقول إن الأمر سيكون سهلاً أو بسيطاً، ولربما اضطررنا أيضاً إلى اجتياز انتفاضة أخرى، لكن هل يجوز أن نبني كل شيء على ما هو أشد سوداء من الأسود؟"

(\*) المصدر: موقع صحيفة "معاريف" (2005/4/22) في الإنترنت: [www.maariv.co.il](http://www.maariv.co.il)

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)